المحاضرة التاسعة: العهد العثماني الثاني" أو عهد الولاة" ١٨٣٥-١٩١١م

إن الوضع المزري الذي أصبح يسود ولاية طرابلس الغرب وخضوع إيالة الجزائر تحت وطأة الاستعمار الفرنسي عام١٨٣٠ قد اقلق الباب العالي كثيرا ، فأمر السلطان محمود الثاني بتوجيه أسطول بحري إلى طرابلس الغرب الذي رسا في ٢١ماي ١٨٣٥بميناء طرابلس بقيادة مصطفى نجيب باشا ،واستدعى إلى سفينته علي باشا وابلغه بعزله من منصبه بأمر من السلطان، ثم اجتمع بالأعيان والعلماء والقاضي وقرأ عليهم فرمان الذي نص على نهاية حكم الأسرة القرمانلية في ولاية طرابلس الغرب وتعيين مصطفى نجيب باشا واليا عليها.

ويذكر أحمد النائب الأنصاري عن هذا الحدث " بأن خبر انقراض حكم بيت آل القرمانلي قد أفرح أعيان البلاد وعامة الناس بل أصبح يُعد يوما مشهودا ومن مواسم الأعياد، إذ قدمت الوفود للتهاني وخمدت فتن الحروب وقتل محمد بك القرمانلي نفسه، وفر أخوه أحمد إلى مالطة وأُرْسِل أَبَاهم علي باشا إلى الأستانة.

خلفيات عودة الحكم العثماني الثاني على طرابلس وعلاقته بالجزائر :

عاد الحكم العثماني إلى طرابلس الغرب ليمتد هذا العهد ستا وسبعين(٧٦) سنة تولى خلالها إدارة الولاية ثلاثة وثلاثون واليا.ويرجع الكثير من المؤرخين بأن دوافع الاستعادة قد سبقها أيضا مساع حثيثة للدولة العثمانية حتّى لا تقع الجزائر في يد الحملة الفرنسية التي تحاصر مدينة الجزائر، ومن تلك المساعي فقد أرسل السلطان العثماني طاهر باشا للسفر إلى الجزائر عام ١٨٣٠ولكنه منع من دخولها، فعرّج نحو مدينة طولون TOULONواتصل بالسلطات الفرنسية، إلا انه لم يجد أذانا صاغية.

وهكذا علم الباب العالي بأن الحكومة الفرنسية تصنعت جهلها بمهمة طاهر باشا وراوغته في طولونTOULONإلى أن احتل الجيش الفرنسي الجزائر، وفي ظل هذه الظروف الخطيرة التي تمر بها الدولة العثمانية، ومما زاد في تأزم الوضع هو تمرد علي باشا والي مصر عليها، وتجدر الإشارة إلى أن أطماع فرنسا لم تكن مقصورة على احتلال الجزائر فقط بل كانت تخطط لمد نفوذها إلى طرابلس الغرب وتونس فلما علم الباب العالي بذلك أرسل حملة عسكرية إلى طرابلس الغرب وتمكن من إلحاقها مباشرة، وقد ساعده ذلك على حماية تونس والاقتراب من معرفة أوضاع الجزائر وكيفية تقديم المساعدات للمقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين بهدف استرجاع الجزائر تحت سيادتها.

ففي الشهور الأولى من عام١٨٣٦م قدمت عريضة من أهالي قسنطينة وما جاورها إلى استانبول يخبر فيها الأهالي السلطان العثماني أنهم يحاربون الفرنسيين ويسترحمون السلطان في منح منصب الولاية إلى أحمد باي قسنطينة، كما طالب الحاج أحمد شخصيا المساعدة من السلطان العثماني وقد استجاب السلطان لطلبه فيما تضمنته الرسالة :" لقد علمنا من رسالتكم التي نقلها إلينا سي الطاهر باشا لكل ما حدث في بلادكم وإننا نهنئكم على الشجاعة التي أبديتموها في مثل هذه الظروف ونحمد الله على النصر الذي حققه لكم ..." ، وتمثلت تلك المساعدات بأن أرسل كامل بك مبعوثا ووجه له نجدة عسكرية على أربعة مراكب بحرية تحمل اثني عشر مدفعا وكميات من الذخائر الحربية ومجموعة من العساكر ولكن باي تونس حجز عليها بضغوطات من السلطات الفرنسية، وطمعا منه في ضم إقليم قسنطينة إليه، وهذا ما تأكده مذكرات الحاج احمد باي ، ويذكر "اتوري روسي" إن هذا الصراع الخفي راح ضحيته شاكر صاحب الطابع بتونس الذي اتهم باتصاله بالأتراك ومطالبتهم للتدخل في الجزائر وإعادة السيادة العثمانية المباشرة على تونس مما كانت سببا في أن أمر مصطفى باشا باي تونس بقتله في ٢سبتمبر ١٨٣٧م، ولنفس الدواعي فقد حاولت أيضا فرنسا التمسك بالقرمانليين تماشيا مع مصالحها وخوفا من عودة الجيرة العثمانية .

سياسة ولاة العهد العثماني الثاني (الباشوات) ١٨٣٥-١٩١١ وخصائصه :

باشر الوالي الجديد **نجيب باشا** سلطته على طرابلس الغرب ، فبادر في أوائل صفر ١٢٥١هـ/١٨٣٥م إصلاح ذات البين فجمع كافة العلماء وعموم المشايخ والأعيان وشكل لجنة برئاسة الحاكم الشرعي أحمد التوغار في مسجد طرغوث باشا للتأليف بين القلوب وحضرها الشيخ غومة المحمودي على قومه وبعد إعلان الوفاق والتسامح أمر بسجن الشيخ غومة بإيعاز من بعض الحاقدين عليه وأصحاب المصالح، كانت سببا في اندلاع الثورة (ثورة الشيخ غومة المحمودي عام١٨٣٥)، ولما عيّن **محمد رائف باشا** أطلق صراحه ومنحه امتيازات كثيرة .

عيّن بعده **طاهر باشا** واليا، واستطاع إخماد الثورات فألقى القبض على عثمان الأدغم وملاحقة غومة المحمودي الثائر في الجبل الغربي (جبل نفوسة) ثم اتجه إلى ترهونة لإخماد ثورتها بقيادة الشيخ المريض ،وثورة منطقة ورفله وسرت وفزان بقيادة عبد الجليل سيف النصر زعيم قبائل أولاد سليمان.

وفي عام ١٨٣٧عيّن الجشملي حسن باشا واليا، حيث عرف عهد انتشار وباء الطاعون الذي قضى على ثلث سكان الولاية (أكثر من ٨٠ ألف هالك)، وقد تكون الظروف الوبائية أرغمت معظم مشائخ واعيان القبائل الثائرة الدخول في الطاعة والولاء في سلطة الحكومة، شريطة منع الأتراك من الدخول إلى مناطقهم بصفة تامة .

وفي ولاية **عشقر باشا** استطاع بحنكته بسط الأمن والاستقرار لفترة بعدما تمكن من القضاء على عبد الجليل سيف النصر زعيم ثورة أولاد سليمان، وتشتيت قوات غومة المحمودي، في حين تمكن الوالي عثمان باشا عام ١٨٥٨من القضاء عليه نهائيا، ليطبع الولاية من ذلك الحين مرحلة هدوء وأمن واستقرار .

ظهور الحركة السنوسية :

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر عرفت زوايا الحركة السنوسية- التي أسسها محمد بن علي السنوسي – نموًّا كبيرا، وأصبح لها أثر فعال في الحياة السياسية

والاجتماعية خاصة في برقة وفزان، وحتى خارج حدود البلاد كتونس وشبه الجزيرة العربية ومصر والسودان الفرنسي، ما دفع بالأتراك إلى محاولة كسب ودّها وإقامة علاقات طيبة مع شيوخ السنوسية للحفاظ على النظام والأمن والاستقرار.

تحويل اسم إيالة إلى ولاية – طرابلس الغرب :

في عهد الوالي **أحمد عزت باشا** ١٨٥٨-١٨٦٧، العالم النبيه الصافي السريرة افتتح أول المدارس الابتدائية ونظّم الولاية إداريا وحث السكان على إرسال أبنائهم إلى المدارس كما نظم الاتصال البريدي بين طرابلس واستانبول وخصص سفينة لهذه المهمة وأطلق على هذه السفينة اسم " المولودية " ، و خلفه **محمود نديم باشا** الذي في عهده صدر فرمان من الأستانة يقضي بتحويل الإيالة الطرابلسية إلى ولاية طرابلس الغرب، كما أسس مطبعة وصحيفة طرابلس الغرب، ووضع ونظّم المجالس الجنايات، والحقوق، والتجارة.

وتمكن احد أبناء حمدان خوجة صاحب المرآة و يدعى **علي رضا باشا الجزائري** الأصل الذي تلقى تعليمه العالي في فرنسا وتدرج في المناصب الإدارية والعسكرية التركية حتى بلغ رتبة مشير، فعيّن واليا على طرابلس الغرب في عام ١٨٦٧م خلفا للوالي محمود نديم فحظي بتعاطف وإعجاب كبيرين من السكان بالنظر إلى أصله الجزائري فكان أوثق صلة بهم من الولاة السابقين وقد اهتم بتحقيق التقدم والرقي، فجمع في يده السلطة العسكرية والمدنية وادخل تعديلات هامة على النظم الإدارية بالولاية وحسن الأوضاع الاقتصادية وبسط السلطة السياسية في المناطق النائية في الجهة الشرقية وأقام به بناءات بهدف اعمارها ومدّ خطوط البريد والتلغراف برّا ، وأسس سوق العزيزية بمدينة طرابلس، ثم عزل وعاد إليها من جديد ١٨٧٢م ولكنه لم يلبث طويلا.

الظروف الدولية وتأثيراتها (١٨٧٨-١٩١١):

كانت الظروف الدولية المحيطة بالدولة العثمانية تنذر بالخطر الأوربي الداهم الذي يتربص بأقاليمها وبخاصة في الشمال الإفريقي ،على اثر ما ترتب من قرارات في مؤتمر

برلين الأول عام ١٨٧٨م، الذي بدأت إشاراته الأولى بالتحرشات الفرنسية على تونس، متخذة ذريعة اعتداءات قبائل خمير على الحدود الجزائرية وملاحقتها في الأراضي التونسية وإرغام باي تونس على توقيع معاهدة الحماية (معاهدة باردو) عام١٨٨١م، ثم وقوع ولاية مصر تحت الحماية البريطانية عام١٨٨٢م، لذا سارع السلطان العثماني بتعيين **أحمد راسم باشا** واليا على طرابلس الغرب في نوفمبر ١٨٨١م لحمايتها من الخطر الأوربي المحدق بها، ومنحه صلاحيات مطلقة ، واجتهد هذا الأخير للتصدي بحزم للتغلغل الايطالي بأن درّب السكان على حمل السلاح وتوعيتهم ، ودام حكمه ستة عشر سنة وذلك إلى غاية عام ١٨٩٦م. واعتبرت ولايته عهدا ذهبيا بالنسبة إلى طرابلس الغرب. فقام بإنشاء المدارس ابتدائية لتعليم الأطفال ومدرسة ابتدائية عسكرية وحث الناس وأعضاء المجالس ومشايخ القبائل المتنقلة على بناء بيوت تكون كتّابا لتعليم الصبيان ، وبنى مستشفى من ثلاث طوابق يحتوي على عشرين حجرة في باب البحر داخل مدينة طرابلس ، و مستوصف به أربع حجرات في ترهونة ،وإنشاء حنفية ماء أبي مليانة ، وتنظيم شوارع المدينة وترصيفها، وبناء وترميم القصور ،وبناء الفنادق في كل من مصراته ومسلاته، و جفارة و العجيلات، و ترهونة و سوكنة، وتوسيع العمل بنظام البلديات في مختلف مناطق الولاية، ومدّ خطوط التلغراف وإنشاء الأسواق وتنظيمها لبيع المواشي والحبوب وغيرها، وتكفل بدفع معاشات الفقراء والمحتاجين وتكفين الموتى من الغرباء والفقراء، ومنع تجارة الرقيق فأوامر بعتق كل من كان مملوكا، فتعطي له الحكومة ورقة العتق. وتوضع النساء الإماء في دار الضيافة التابعة للبلدية حتى يتزوجن،أو يؤخذن في البيوت بصفة خادمة بأجرة يومية أو شهرية.

في عام ١٩٠٠تسلم حكم الولاية الوالي **حافظ باشا** الذي نظم أمور الولاية اقتداء بسلفه الوالي أحمد راسم باشا، فجرّد الكروغلية من الامتيازات، واهتم بالتعليم وانشأ دار المعلمين للبنات، ومنع على الضباط الانكشارية من إرسال أبنائهم إلى المدارس الأجنبية، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن الايطاليون من بسط نفوذهم في الولاية بتسهيلات من رئيس وزراء الدولة العثمانية آنذاك حقي باشا المتزوج من ايطالية، فكانت تلك التسهيلات الاقتصادية خاصة (بنك دي روما) منفذا لتسرب الاحتلال الايطالي لولاية طرابلس الغرب في

٢٧سبتمبر ١٩١١م، ونتيجة لضعف الدولة العثمانية وفشلها في المواجهة العسكرية اعترفت مرغمة بالحماية الايطالية على ليبيا بموجب معاهدة "أوشي لوزان" ١٩١٢م فكان خروج الأتراك منها ونهاية لتواجدهم بالشمال الإفريقي عامة.